

2015

الخصائص الموضوعية والفنية في شعر شمس الدين الكوفي (الواعظ (ت 675هـ)

أ.م.د. سوسن صائب المعاضيدي
كلية التربية/ ابن رشد للعلوم الإنسانية/ جامعة بغداد

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad>



Part of the [Arts and Humanities Commons](#), and the [Law Commons](#)

Recommended Citation

المعاضيدي, أ.م.د. سوسن صائب (2015) "الخصائص الموضوعية والفنية في شعر شمس الدين الكوفي الواعظ (ت 675هـ)," *Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal*: Vol. 11: Iss. 1, Article 1.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad/vol11/iss1/1>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

الخصائص الموضوعية والفنية في شعر شمس الدين الكوفي الواعظ (ت

675هـ)

أ.م.د. سوسن صائب المعاضيدي
كلية التربية/ ابن رشد للعلوم الإنسانية/جامعة
بغداد

ملخص البحث

يتحدث هذا البحث عن الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ وشعره في مأساة بغداد التي ضربها أسوأ هجوم على يد هولاكو سنة 656 وما حدث من تدمير وحرق وهدم على أيدي التتار، ويمكن ملاحظة الجناس في شعره ولا سيما الرثاء، وكذلك الغرض من الشعر غير الغزل والوصف والسخرية كما ثلاثة موشحات، ويمكن للقارئ ملاحظة الكوفي عمداً تضمن قصائد آيات من القرآن فضلاً عن معارضته لبعض كبار الشعراء مثل أبي تمام وابن زيدون.

Abstract

Objective characteristics and technical hair Shamsuddin Kufi

Preacher T. 675 AH

A . M . D . Sawsan Saeb Almaadida

Education College of Human Sciences | Ibn Rushd

Speaking of this research for hair Shamsuddin Kufi preacher poet tragedy Baghdad hit by the worst attack on the hands of Hulagu year 656 AH has lamented poet Baghdad and more than Altfaja them and whatever happens from destruction and burning and looting at the hands of the Tartars , and can be observed propagation poet of amendments Alibdieih in his hair especially alliteration , and Kofi lament for people as well as the purpose of poetry other than yarn and description and satire also has three stanzas , and can Qari Note deliberately kufi included poems to verses from the Koran as well as his opposition to some of the great poets such as Abu Tammam and son Zeydoun

μ

إن شعر شمس الدين الكوفي⁽¹⁾ (ت675هـ) يدفع الباحث الى تتبعه ودراسته وبخاصة وهو يتوزع على أغراض عديدة منها المديح، والرثاء، والغزل، والوصف... الخ فضلاً عن الموشحات، والدارس المنتبِع لاشعار الكوفي يستشعر رقة الألفاظ، وعذوبتها ورهافتها حيناً، وقوتها وجزالتها حيناً آخر، ولعل أكثر الاغراض الشعرية

التي احتلت مكاناً واسعاً في ديوانه غرض الغزل الذي يأتي بالمرتبة الأولى، إذ تناولته الشاعر في 16 نصاً ما بين مقطوعة وقصيدة، وقد بدا غزله رقيقاً طبعاً، ليناً وتبدو من خلاله العاطفة واضحة جلية منها هو ذا يقول:

الى كم بأرواح المحبين تعبت على الهجر كم تبقى النفوس وتمكث
تعطف على صلب كنيب متيم ذليل بأذبال الرجا يتشبث
يراك فبغضي خيفة ومهابة وحاجاته في صدره تتحدث⁽²⁾

ويشرح الشاعر حالة العاشق هذه إذ أنه ما كان يعلم ما يفعل الجفاء في أنفس المحبين، إلا أن الوشاة وما عندهم من دسائس قد علمته هذه الأمور، ويطلب من محبه التصق عليه بالزيارة للحديث والكلام ليس إلا- ولعمري هذا هو الغزل العفيف -وتلك قمة العفة- وأرى بتواضع أن قطعة شمس الدين الكوفي هذه تعد من الغزل العفيف إذ موته وحياته في صدور محبه ورضاه، فالصّب مأسور مسحور بلحاظ حيث إذ يقول:

وماذا عليه لو تصدق زائراً وكنا خلونا ساعة نتحدث
يميت ويحيى بالصدود وبالرضا ففي كل يوم ممات ومبعث
فكيف خلاص الصب من أسر لحظه وهاروته في عقدة السحر ينفث⁽³⁾

وهو لا يبالي بما يقول الواشون إذ هو عالم بالهوى فريد فيه فلا يمكن لأحد أن يكتّم أشجانه وحبّه فيقول:

وقد ظهر المكتوم وانكشف الغطا وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
واني على علم الهوى منفرد عليّ دروس الحبّ تملأ وتبحث
وتظهر أشجان المحبين شجوههم كذا رؤيتي والوجد للوجد يبعث⁽⁴⁾
وللكوفي سينية في الغزل جاء فيها بالفاظ طرية وصور محببة إذ يقول في مطلعها:

ما للقلوب سوى الحبيب أنيس هو للفؤاد منادم وجليس⁽⁵⁾
ويصور جمال هذا المحبوب وجذبه لقلوب الناس (بالمغناطيس) ولا أظن - على حسب ما قرأت- أن شاعراً التفت الى هذه المسألة وصاغها بهذه الطريقة، وإن كان جذب المغناطيس للأشياء المعدنية معروفاً ولكنها تبدو عند الكوفي مخترعة فيقول:

جذب القلوب الى هواه جماله فكأنه للخلق مغناطيس⁽⁶⁾
ويستعمل الكوفي في غزله مصطلحات فلسفية عندما يذكر جمال محبوبه فيقول:
لا يدرك المعقول لطف جمال من أهوى فكيف يناله المحسوس⁽⁷⁾

ويمضي في شرح حبه ووجده بأسلوب العاشق المتذلل الذي أضناه الهوى وأتعبه العشق قائلاً:

كم قد كتبت إليه قصة غصتي بمداد دمعي والخدود طروس
لم يبق دمعي وجنتي إلا عسى يوماً لها قدم الحبيب تدوس
دمعي بذكرك مطلقاً ومسلسل وصبايتي وقفت عليك حبيس
الناس عشاق وأنت حبيبهم والكون ماشطة وأنت عروس⁽⁸⁾

وحبيبه ممنع لا يمكن الوصول اليه ويذكر الكوفي أن هناك من لأمه على أتلاف حالة في هوى محبوبه متسائلاً: أيمن أن تكون للعاشقين نفوس ؟ فقد جرد نفسه مبيناً أنه لا يستقيم العقل والمال عنده ولقد أظهر عكس ما يعاني في هوى حبيبه شأنه في ذلك شأن الخاتم المنقوش الذي ينقش بالعكس وعن رؤيته تنظر حالته الصحيحة فيقول:

وحماك كم نحرت نحور دونه
ايقال لي أتلفت نفسك في الهوى
عجبي وهل للعاشقين نفوس ؟
لا يستقيم الكيس لي والكيس
نقش الفصوص صوابه المعكوس
كم قال قوم والحديث تعلقه
وتطايرت عند الدنور رؤوس
وادي العروس وما هناك عروس⁽⁹⁾

ويبين الشاعر أنه قد غرّ هؤلاء القوم التسمية مثلاً غرّت بلقيس بالصرح وينادي أحبته الذين يحنّ اليهم حتى إذا وصل الى هؤلاء الأحبة زال عناءه وبؤسه إذ يقول:

قد غرهم آل التوهم مثلاً
يامن دعا أرواحنا فتأبدرت
سارت إليك بنا أيا نفتا فلا الـ
ومتى وصلن إليك يا كلّ المنى
غرض الرثاء
وقد أشار الأدباء الى أنه تعداد خصال الميت وبكائه، وأشاروا كذلك الى أنه من الموضوعات التي تشترك بها الشعوب كافة⁽¹¹⁾.

ويأتي الرثاء بالمرتبة الثانية إذ احتل (11) نصاً، ولقد كان لرثاء بغداد دار السلام التي أحتلت وخربت واتلفت معالمها وقُتل أهلها الأثر الواضح والحزين في أشعار شمس الدين الكوفي إذ له قصيدة تفيض بالأسى والحزن يقول في مطلعها:

عندي لأجل فراقكم الأم
فالأم أعذل فيكم والأم⁽¹²⁾
ولقد أشار الدكتور ناظم رشيد الى هذه القصيدة فقال: (رثى الشاعر الأهل وأبن الأصحاب في قصائد تفيض بالدمع والأسى، وما نظن شاعراً استطاع أن يصل الى ما وصل اليه شمس الدين الكوفي في بكاء الدولة العباسية، فقد أقطع بكاءه عليهم من فؤاده)⁽¹³⁾.

وأوافق أستاذي الدكتور ناظم رشيد الرأي في أنّ من يقرأ هذه القصيدة، يحسّ ألم الفاجعة بل تنفذ في قلبه جذوة الحزن والأسى على فراق الأحبة والصحب إذ يقول:

من كان مثلي للحبيب مفارقاً
نعم المساعد دمع الجاري على
ويذيب روعي نوح كل حمامة
إن كنت مثلي للأحبة فاقداً
قف في ديار الظاعنين ونادها
لا تعذلوه فالكلام كلام
خدي إلا أنه نمام
فكأنما نوح الحمام حمام
أوفي فؤادك لوعة وغرام
يا دار ما صنعت بك الأيام⁽¹⁴⁾

لقد جاء استعماله للجناس هنا موفقاً إذ أضفى على البيت روعة الشجن ففي البيت الذي يقول فيه من كان مثلي للحبيب مفارقاً يدعو أحبته بعدم لومه إذ اللوم هنا جرح للمشاعر، وقد أحسن المجانسة بين كلام التي تعني اللوم والأخرى التي تعني وكذلك في قوله وبذيبي روي نوح كل حمامة إذ يجد أن نوح الحمام حمام وقد جانس بين كلمتي الحمام التي تعني الطائر والحمام التي تعني الموت. ويستفهم الكوفي بنبرة حزينة طاغية اللوعة والشجن عن الديار وبهائها وضيائها وزمانها الذي كان ربيعاً دائماً فيقول:

يا دارُ أين الساكنون وأين ذبا
يا دارُ أين زمان ربك مونقاً
يا دارُ قد أفلت نجومك عمنا
فلبعدم قُرب الردى ولفقدهم
فمتى قبلتُ من الأعادي ساكناً
ثم هو يبكي الخلافة العباسية بأدمع سجام، وقلب يكاد يتفطر حزناً، ذاكرةً أن فراقهم قد نغص عليه حياته، بل إنَّ هذا الفراق أضرم النار بين ضلوعه إذ يقول:

يا سادتي أما الفؤاد فشيق
والدارُ مذ عذمت جمال وجوهكم
لاحظ فيها للعيون وليس لأ
وحياتكم إنني على عهد الهوى
فدمي حلال إن أردتُ سواكم
يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم
فلق وأما أدمعي فسجام
لم يبق في ذاك المقام مقام
أقدام في عرصاتها أقدام
باقٍ ولم يُغفر لديّ ذمام
والعيش بعدكم عليّ حرام
نارٌ لها بين الضلوع ضرام⁽¹⁾

ويسأل الكوفي عن أخبار أحبته الذين فرقتهم صروف الزمان أين هم؟ وأين صاروا، وكيف صارت أحوالهم بعد تغير الحوادث والأيام؟ فيقول:

لا كتبكم تأتي ولا أخبركم
نغصتم الدنيا عليّ وكلمما
ولقيت من صرف الزمان وجوره
ياليث شعري كيف حال أحبتي
ما لي أنيس غير بيت قاله
(والله ما أخترتُ الفراق وإنما
تروى ولا تدنيكم الأحلام
جد النوى لعبت بي الأسقام
ما لم تُخيله لي الأوهام
وبأي أرض خيموا وأقاموا⁽¹⁷⁾
حيث رمته من الفراق سهام
حكمت عليّ بذلك الأيام⁽¹⁸⁾

على أن قصيدته النونية والتي تقع في (26) بيتاً تبقى صرخة تسلب القلب وتثير أشجانه وأحزانه، وأكد أن ما من قارئ لهذه القصيدة إلا ويستشعر هول الفاجعة، وشدة الصدمة، بل يكاد يرى الشاعر باكياً منتحباً على ما حل بهذه المدينة العريقة فيها هو ذا يقول في مطلعها:

إن لم تُقْرِح أدمعي أجفاني
إنسان عيني مذ تناعت داركم
يا ليتني قد مت قبل فراقكم
من بعد بعدكم فما أجفاني
ما نظر إلى إنسان
ولساعة التوديع لا أحياني

حالي وخلصني بلا خلان
أهلي ولا جيرانها جيرانني
غيرُ البلى والهدم والنيران⁽¹⁹⁾

مالي وللأيام شئتَ صرُفها
ما للمنازل أصبحت لا أهلها
وحياتكم ما حلها من بعدكم

ويقف الشاعر عند الدار حزناً حائراً متسائلاً عن تلك الديار وأهلها، أين سادتها وكبراًؤها الذين كانوا قادة الأمم؟ أولئك الذين تبكي عليهم منابرهم وتبكي عليهم الخصال الحميدة، فيأتيه الجواب سريعاً، لقد تفرقوا وتشتتوا وكذا حال الذين سبقهم إذ يقول:

ووقفتُ فيها وقفة الحيران
فتكلمت لكن بغير لسان
كانوا هم الأوطار في الأوطان
ذلاً تخرُّ معاقداً التيجان
يبكي الهدى وشعائر الإيمان
وتبدلوا من عزهم بهوان
أبدأ ويخرج من أعز مكان
أفنت قديماً صاحب الأيوان
أضحت معطلة من السكان
لجمالهم مستهدم الأركان
وجدني ولا أشجانه أشجاني⁽²⁰⁾

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم
وسألتها لكن بغير تكلم
ناديتها يا دار ما صنع الألى
أين الذين عهدتهم ولعزهم
كانوا نجوم من أقتدى فعلهم
قالت: غدوا لما تبدد شملهم
كدم الفصاد يراق أرذل موضع
أفنتهم غير الحوادث مثلاً
لما رأيت الدار بعد فراقهم
مازلت أبكيهم وألثم وحشة
حتى رثي لي كل من لا وجده

ثم يعود الشاعر ليستذكر تلك الأيام الخوالي في تلك الدار التي كانت تجمعها بأحبته إذ العيش الرغيد والحياة الهانئة، وإذ قطوف الأمان والدعة تجتنى فيقول:

كنا بكل مسرة وتهاني
بيد الأمان قطوف كل أمانني
والوقت يُعدينا على العدوان
بيد الوصال ملابس الهجران⁽²¹⁾

أترى تعود الدار تجمعنا كما
إذ نحن نغتنم الزمان ونجتني
والدهر تخدمنا جميع صروفه
والعيش غصّ والدنو ممزق

ويعود الشاعر ليقرر استبعاد عودة تلك الأيام الهانئة الرغيدة فقد عزّ اللقاء، وسدت طوارق الحدّثان المزار، وليس هناك لا أحباب ولا خلان، فيروح باكياً نادياً أيّاهم نائحاً عليهم، متسائلاً في آخر القصيدة عنهم وعن وجهتهم وأين حلوا إذ يقول في ذلك:

طرق المزار طوارق الحدّثان
أحباب بين جماعة الأخوان
واوحشتي وأحزّ قلبي العاني
زهراً ولا ماست غصون البان
والنوح والحسرات والأحزان⁽²²⁾
أم أين مواطنكم من البلدان⁽²²⁾

هيهات قد عزّ اللقاء وسدت
مالي أردد ناظري ولا رأي الـ
والهفتي واوحدتي وا حيرتي
سرتم فلا سرت النسيم ولازها
مالي أنيس بعدكم غير البكا
ياليت شعري أين سارت عيسكم

وهكذا نجد أن الأحداث التي آلت بعاصمة العباسيين إلى السقوط وحولتها إلى خراب يباب قد أثرت في نفس هذا الشاعر المرهف وحركت أحاسيسه الشعرية ففاضت أشعاره دموعاً باكية نائحة على ما حل بالمدينة وأهلها.

وللشاعر أيضاً رثاء للأشخاص الذين قضوا، إذ ذكر ابن الفوطي أنه لما توفي تاج الدين علي بن عبدوس وهو من كبار المتصوفة ببغداد رثاه شمس الدين الكوفي بقصيدة يقول في مطلعها:

أرى الدنيا تؤول الى نفاذ ونحن لها بأنفسنا نفاذي (23)

وبين الشاعر أن هذه الدنيا التي يتهالك الناس عليها ويجدون ويجتهدون في طلبها إنما هي مفنية مشبهها إياها بأمر قتل بنيتها إذ يقول:

ونعلم أنه تفني وتفني ونطلبها بجد واجتهاد
ونصلحها وتفسدنا ونُدري بأن صلاحها عين الفساد
هي الأم التي قتلت بنيتها فحاذرها محاذرة الأعادي (24)

والأبيات أعلاه تفصح عن حكمة واضحة جسدها هذا الشاعر في أن الدنيا غدارة خَوَّانة تقتل بنيتها لذا عليهم الحذر منها، ثم يبين أن ما فعلته بالمرثي يكفي إذ سلبته أحسن ما يمكن أن يراه الإنسان، مبيناً بعد ذلك أن المرثي أخوه وركنه وأن فقدته قد قطع شرايين قلبه.

من الحزن وأنه قد صبره بهذا الفقد وهو الجلد الصبور على الرزايا فيقول:

وما فعلت بتاج الدين يكفي لقد سلبته أحسن ما رآه
إذا فكرت تفكير انتقاد يسر بحسنه أهل البلاد
أتاج الدين كنت أخي وركني فبعدك بالإخاء لمن أنادي
أيا ابن أبنني قطعت نياط قلبي بأحزان وأسـياف حـداد
أتاج الدين قد أفنيت صبري وكنت على الخطوب من الجداد
أتاج الدين قد أوحشت عيني وإن كنت انتقلت الى فؤاد (25)

ويذكر الشاعر شدة تعلقه بالمرثي إذ يوضح أنه لم يتسطيع فراقه شهراً فكيف إذا عدم التلاقي في الدنيا؟! مبيناً أنه أراد أن يسر به لكنه لم يبلغ ما يريد فهو حزين عليه كل يوم بل إن حزنه يزيد، لذا يلتجئ الشاعر إلى الرموز الدينية العظيمة موضحاً أن تاج الدين (المرثي) سيلي أبا الحسنين أمير المؤمنين علي ابن طالب (عليهم السلام) بينما سيبكيه عند الإمام موسى بن جعفر وابنه محمد الجواد (عليهم السلام) إذ يقول:

فلو كان التلاقي بعد شهر لكنت أضج من طول البعاد
فيكف وليس في الدنيا تلاق وميعاد التلاقي في المعاد
أردت أن أنال به سروري فمات وما بلغت به مرادي

ويخاطب الكوفي مرثيه مبيناً له أن رحليه قد سلبه سرور نفسه وأبعد عن جفنيه الرقاد، أن حزنه في كل يوم بازدياد إذ يقول:

رحلت وقد سلبت جميل صبري وسرت فسار عن جفني رقاد
فحزنك كل يوم في أنقاص وحزني كل يوم في إزدياد
سرورك عند مولانا علي وحزني عند موسى والجواد

وحزني قد يخففه يقيني بأنك قد قدمت على جواد

والحقيقة أن الشاعر إنما بدأ قصيدته بحكمة وختمها بحكمة أخرى، إ أن مما يخفف مصائب الفقد أن الراحل قادم الى رب كريم جواد عفو محسن لا يظلم عنده أحد. ويقرن الشاعر في قصائد الرثاء عنده بين المصيبة وما نزل بالأمة الإسلامية من نكبات ومآسي في صور رائعة أحسن صياغتها بما عُرف عنه من روح شعرية واضحة وإحساس عالٍ.

وله قصيدة رائعة في وصف الربيع تقع في (21) بيتاً، وقد أشار لها أبو العباس المقرئ بالقول: (ما رأيت رائية تقرب لابن مرج الكحل التي أولها:

عرج بمنعرج الكئيب الأعفر

والأدائية شمس الدين الكوفي الواعظ وهي قوله:

روح هذا الزمان هو الربيع فبكر وأنهض الى اللذات غير منكر

ولكن قصيدة ابن مرج الكحل، أعذب مذاقاً، وكل منهما لم يقصر، رحمهما الله تعالى، فلقد أجادا فيما قالاه الى الغاية، وليس الخبر كالعيان⁽²⁶⁾.

وانهض الى اللذات غير منكر

روح هذه الزمان هو الربيع فبكر

أصناف ما تهوى فأين المشتري؟

هذا الربيع يبيع من لذاته

رقل الشقائق في القباء الأحمر⁽²⁷⁾

فافرح به فلفرحة بقدومه

ويمضي الكوفي في وصف مباهج الربيع فيقول:

يحيى القلوب بنشره المتعطر

والكون مبتهج وخفاق الصبا

لبكائه كتبسم المستبشر

والغيث يبكي والأقاحي باسم

طاف الغصون يمين ميس موقر

والسرو إن عبث النسيم فهز أعد

يهدي إليك أريج مسك أنفر

وكأنما القذاح فسقت فضة

الوان ياقوت أنيق المنظر⁽²⁸⁾

وكأنما المنثور في أثوابه

وقد أحسن الكوفي في تشبيهاته هذه وأضاف لقصيدته هذه رونقاً بهياً بهذه التشبيهات التي وصف الربيع بها، فلم يترك شيئاً تقع عليه عينه إلا وضمت في قصيدته هذه إذ يقول:

متشوق باد بوجه أصفر

وترى البهار كعاشق متخوف

قتديل والأوراق شبه مسحر

وكأنما النارنج في أوراقه الـ

خبر يسرهم بطيب المخبر

وكأنما الخشخاش قوم جاءهم

كي يخلعوا فرحاً بقول المخبر

فثنوا ملابسهم لفرط سرورهم

وتعلقت أزيائها بالمنحر⁽²⁹⁾

فتعلقت أذيالهم بأكفهم

وهكذا يستمر الكوفي بوصف الرياض والطل المنثور فوقه والربى، والنور، والنثر الطيب، حتى يصل الى وصف الورق وتفريدها فيقول:

دُرّ نثرن على بساط أخضر

والطل من فوق الرياض كأنه

ومدملج ومخلخل مسور

وترى الربى بالنور بين مبوح

ومطوق وممنطق ومزّنر

ورياضها بالزهر بين مقرطق

ومكتفٍ ومُلطَفٍ لم يُصهرِ
ومرضعٍ ومُدرهمٍ ومُدَّ نضرِ
ومعطرٍ ومصنَدلٍ ومعنبرِ
ومفجعٍ ومسجعٍ في منبرِ
ومبددٍ في الخدِ ماءً المحجرِ (30)

والوردُ بين مُضعِفٍ ومشنَفٍ
والزهرُ بين مفضضٍ ومذهبٍ
والنثر بين مُطيبٍ وممسكٍ
والورقُ بين مرجعٍ وموجعٍ
ومعردٍ ومرددٍ ومعددٍ

الذم:

وقد ذمَّ شاعرنا حمَّامَ المستنصرية في يثيين واصفاً إياه بالبادر، راسماً له صورة هجائية جملةً مصوراً فيها أن أيوب النبي -ص- لو مسَّه الأذى في ذلك الوقت لقصد حمام المستنصرية لما يجد فيه من شراب ومغتسل بارد إذ يقول:

ولو أن أيوب في عصرنا
لجاءَ إلينا فحمامنا
قد مسَّه بالأذى الباردُ
(شرابٌ ومغتسلٌ باردٌ) (31)

وله في الزهد قصيدة في (10) أبيات يدعو فيها إلى اعتزال الناس، إذ أن هذا الاعتزال طريق للخلاص داعياً إلى التفرد والخلوة، ففي هذا التفرد راحة من كل قريب وبعيد متذكراً أن هناك حشراً سوف يُحشر البشر فيه جميعهم وهناك سيكون المحاسب خائفاً من ذنوبه، فماذا سيقول لو شاهدها فعلاً سيئة؟ وعند ذاك لا مفرد إذ لات حين مناص فيقول في ذلك:

اعتزال الوري سبيلُ الخلاص
أنا مالي همُّ فبالناس همي
صاح ما أطيب التفرد في الخلوة (م)
أنفق الوقت كله في فرادي
ليت شعري ماذا أقول إذا نودي (م)
وتأسفت حين شاهدت أعمالي (م)

وهو ينادي العاصي الكثير الذنوب كي يرعوي عن أعماله الشائنة مذكراً إياه بأن عمره ذاهب وله أن يتعظ بمن ذهب متسائلاً عن شيد القصور وتركها فقد مات ومات ذلك القنوع ناصحاً بالحرص على الصلاح والأبتعاد عن أولئك الذين يحرصون على حطام الدنيا داعياً إلى التفكير بيوم القيامة ذلك اليوم الذي سندعى فيه جميعاً إلى الحساب عن كل صغيرة وكبيرة أرتكبتها فيقول:

يا كثير العصيان قد ذهب العمر (م)
أين من شيد القصور لقد ما
كن حريصاً على الصلاح وفارق
وتفكر يوماً يحق بك الذل

وقد أحسن شمس الدين الكوفي في استعمال المحسنات البديعية من جناس وطباق وظفها توظيفاً متجانساً في قصيدته هذه إذ جاء الجناس في كلمة الخلاص الواردة في البيت الأول متناسقاً مع طبيعة قصيدته في الزهد، وأجاد في المطابقة بين كلمتي

له فيقول:

قَدْ نَسَرْتُ يَا أَحِبَّائِي جَرَائِحَنَا
أَمْرَاضَنَا مِنْ كَلَامِ الشَّامِتِينَ بِنَا
إِنَّا عَطَّاشٌ إِلَى أَخْبَارِكُمْ فَمَتَى
بِنَا إِلَى عِزِّكُمْ فَقَرُّ وَمُسْكَنَةٌ

توظيف الفنون البلاغية في النصوص الشعرية:

وقد ظهرت فنون بلاغية عدة في شعر الشاعر، نالت فنون علم البديع النصيب الأوفر بينها، وأكثر هذه الفنون العصر الجناس (والجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس كلها الفاظ مشتقة من الجنس/ فالجناس مصدر جانس والتجنيس تفعيل من الجنس والمجانسة مفاعلة منه)⁽³⁷⁾.

ومن الاستخدامات الرائعة لهذا الفن قوله:

تعطف على صبّ كئيب متيم

ويقرب من ذلك البيت في نجاح التوظيف للألفاظ المتجانسة في قول الشاعر:

وللجناس التام حضوره في شعر الكوفي والجناس التام (ويسمى الكامل فهو ما تماثل ركناه لفظاً وخطأ واختلافاً معنى من غير تفاوت في تركيبهما ولا اختلاف في حركاتهما) سواء كانا من أسمين أو فعلين، أو من اسم وفعل، أو اسم وحرف فإن كان من نوع واحد سمي مماثلاً، أو من نوعين سمي مستوفياً، وهذا الجنس من اكمل أصناف التجنيس، وأرفعها مرتبة، وأولها في الترتيب الأصلي وشاهده من القرآن الكريم^(٤٠). قوله تعالى: ج ك هـ ز ح ط ي ق ر ش ت ث د ذ ن م ء

جَرَدْتُ نَفْسِي إِذْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ الْكَيْسُ لِي وَالْكَيْسُ⁽⁴¹⁾

ولقد تحقق الجناس التام في قوله (الكيس والكيس) (42).

وحين نقرن بهما لفظة (يستقيم) يهيمن جرس حرف السين على الشطر الثاني، فضلاً عن جرسه في لفظة (نفسى) في الشطر الأول كما يكفل للبيت موسيقى ناعمة تلائم فكرة البيت التي تتسم بالرصافة والهدوء.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الأفكار لم تخطر في بال الشاعر الذي كان يرى- امتثالاً لذوق عصره- أن الابداع لا يتجاوز المجانسة بين المفردات، دون أن يتوغل وراء البناء الموسيقي وجرس الالفاظ.

وأما الطباق فكان هو الآخر قد حظي باهتمام الكوفي فاستعمله والطباق: (الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة)⁽⁴³⁾.

وقد عرضه السكاكي بقوله: (وهي أن تجمع بين متضادين كقوله أما والذي ابكى وأضحك أمات وأحيا والذي أمره الأمر)⁽⁴⁴⁾. وقد جاء الطباق عنده في المدح فقال:

حتى أتاه بعزم نافذ وندى غمر فسهل منه كل ما صعباً⁽⁴⁵⁾
ولا شك أن شاعرنا أحسن في توظيف الطباق هنا إذ أبان للقارئ أن ممدوحه كان نافذ العزم قوي الشكيمة جواد اليد فاستطاع بذلك تسهيل كل صعوبة مرت أمامه. وقد طابق في غزلياته كذلك في قوله:

يميت ويحيى بالصدود وبالرضا ففي كل يوم ممات ومبعث⁽⁴⁶⁾
وقد تناصت أبياته في الغزل مع قول الفرزدق في مدح الامام زين العابدين بن علي (عليهما السلام):

يغضي حياءً ويغضي من مهابته فما يكلم الا حين يبتسم⁽⁴⁷⁾
فقال شمس الدين الكوفي:

يراك فيغضي خيفة ومهابة وحاجاته في نفسه تتحدث⁽⁴⁸⁾
وقد جاء طباقه هذا موقفاً ومتماشياً مع رقة الأبيات الغزلية التي أنشأها ولم تخلُ قصائد الرثاء والشكوى عنده من استعمال هذا اللون البديعي فقد ذكر خراب بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله في قصيدة تعدّ من عيون قصائد رثاء المدن يقول في مطلعها:

عندي لأجل فراقكم آلام فالآلم أعدل فيكم والآلم⁽⁴⁹⁾
وفيه يقول:

فليبعدهم قرب الردى ولفقدهم فقد الهدى وتزلزل الاسلام⁽⁵⁰⁾
ويمكن للقارئ معرفة تأثير الطباق بين لفظتي (فليبعدهم) و(لفقدهم) في توصيف حالة سقوط الدولة العباسية وما آلت اليه الأمور بعد ذلك من خراب عمّص البلاد وقتل العباد/ واستباح الحرمات.

التناص لغة من نصّ نصاً الشيء رفعة وأظهره فلان نص استقصى مسأله عن الشيء حتى استخرج ما عنده هو النص مصدر أصله أقصى الشيء الدال على غايته أو الرفع والظهور⁽⁵¹⁾.

ولقد تناصت أبيات الكوفي مع القرآن الكريم إذ وظّف بعناية فائقة ألفاظه وأدخل فيها بعض الآيات القرآنية ليخرج بصورة شعرية مستحسنة ومثال ذلك قوله:

ولو أن أيوبَ في عصرنا وقد مسّضه بالأذى الباردُ (52)
لجاءَ إلينا فحماننا شراب ومغتسل باردُ

واوضح التناص في الشطر الثاني من البيت الثاني مع قوله تعالى: ج □ □ □ □ (53).

وكذا تناصت أبياته التناص التاريخي في ذكره لحوادث تاريخية مثال ذلك قوله:
يا ماء ما انصفت آل محمدٍ وعلى كمال الدين كنت المجتري
في الطف لم تسعد أياه بقطرةٍ واليوم قد أغرقته في أجبر (54)
وقد ضمّن في القصيدة الرثائية هذه بيت أبي تمام في رثاء محمد بن حُميد الطوسي إذ يقول:

تردى ثياب الموت حُمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندسٍ خضر (55)
فقال شمس الدين الكوفي:

والله ما نزعْتُ ملابسُ جسمه حتى تبختر في الحرير الأخضر
وأما الموشح وهو من الفنون الشعرية المستحدثة فقد أبدع فيه شمس الدين الكوفي والموشح لغة اسم مفعول من الفعل وشحّ والوشاح: أديم عريض يرصع بالجواهر تشدّه المرأة على عاتقها وكشميها، وقد عرّفه ابن سينا الملك فقال: (كلام منظوم على وزن مخصوص يتألف في الأكثر من ستة أفعال، وخمسة أبيات وفي الأقل من خمسة أفعال) (56).

ولشمس الدين الكوفي ثلاث موشحات جرى فيها على نمط الوشاحين وفي غرض واحد هو الغزل مزج في بعضها الطبيعة بالغزل يقول في احداها:

أدهش لي	هذا الجوّذر	حاوي المُلح
شرشّ قلبي	حالي غير	لما سخّ
نغشى ربي	ورداً أحمر	مثل الشيح
من نمل	حير قلبي	في خدود ذا البدر
قم واستجل	ذا واستمل	من عذاره عُذري (57)

هوامش البحث:

- (1) توفي شمس الدين محمد بن عبد الله الهاشمي الكوفي الواعظ، وكان أديباً فاضلاً عالماً، شاعراً، ولي التدريس في المدرسة التنشئية، وخطب في جامع السلطان ووعظ في باب بدر، وكان عمره نحو اثنتين وخمسين سنة، وكان له شعر حسن فمن كتبه على يد معشوقه إلى أحد الأعيان:
اني جعلتُ رسولِي من كلفتُ به
وقد كتبتُ بما القى أبناء من الوصب
فدع كتابي وسل عني لواظظه
(فالسيف أصدق أنباء من الكتب)

ص390، الحوادث الجامعة لابن الفوطي، مصطفى جواد، المكتبة العربية، بغداد، 1351هـ، ينظر فوات الوفيات ابن شاکر الكتبي تحقيق علي معوض وعادل أحمد 485/2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.

- (2) الديوان: 32.
 (3) م. ن.: 32.
 (4) م. ن.
 (5) م. ن.
 (6) م. ن.: 41.
 (7) م. ن.
 (8) م. ن.
 (9) م. ن.: 42.
 (10) م. ن.: 43.
 (11) ينظر الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام، د. بشرى محمد علي الخطيب، ص20، مطبعة جامعة بغداد، 1971.
 (12) ديوانه: 64.
 (13) في أدب العصور المتأخرة، د. ناظم رشيد، ص72.
 (14) الديوان: 65.
 (15) م. ن.
 (16) م. ن.: 65.
 (17) م. ن.
 (18) م. ن.: 66.
 (19) م. ن.
 (20) م. ن.: 74.
 (21) م. ن.: 74.
 (2) م. ن.
 (22) م. ن.: 74.
 (23) م. ن.: ق6، ص33.
 (24) م. ن، ص33-34.
 (25) ديوانه: ق6، ص34.
 (26) نفح الطيب لأبي العباس المقرئ (ت 1041هـ) تحقيق: احسان عباس 75/5، طبع دار صادر بيروت، 1968.
 (27) ديوانه: 39.
 (28) م. ن.: 40.

- (29) م. ن.
- (30) م. ن.: 41.
- (31) م. ن.: 35.
- (32) م. ن.: 47.
- (33) م. ن.
- (34) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، ص67، من منشورات مؤسسة البايطين للابداع الشعري، ط3، الكويت، 2004.
- (35) ديوانه: 70.
- (36) الديوان: 71.
- (37) انوار الربيع في انواع البديع، ابن معصوم المدني (1120هـ)، تحقيق: شاكِر هادي شكر 97/1، ينظر معجم المصطلحات البلاغية، ص450، م. د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2007.
- (38) ديوانه: 32.
- (39) م. ن.: 42.
- (40) انوار الربيع: 148/1.
- (41) ديوانه: 42.
- (42) جاء في لسان العرب: (الكيس: العاقل، والكيسُ خلاف الحمق.....) والكيس من الاوعية وعاء معروف يكون للذراهم والدنانير والدر والياقوت)، لسان العرب مادة (كيس).
- (43) الايضاح في علوم البلاغة: ص348.
- (44) مفتاح العلوم: ص200.
- (45) ديوانه: ق1، ص28.
- (46) م. ن.: ق6، ص32.
- (47) ديوان الفرزدق 179/2، دار صادر، بيروت، 1960.
- (48) ديوانه: ق6.
- (49) م. ن.: ق32، ص64.
- (50) م. ن.: ق32، ص65.
- (51) ينظر لسان العرب مادة (نص).
- (52) ق8، ص35.
- (53) سورة ص/ آية 42.
- (54) ديوانه .
- (55) ديوان أبي تمام: 403/2، تقديم وشرح د. محي الدين صبحي، دار صادر، 1997.
- (56) دار الطراز، ص40، دار الفكر العربي، دمشق، 1977.
- (57) ديوانه: 83.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

- 1- انوار الربيع في انواع البديع، ابن معصوم المدني (ت1120هـ)، تحقيق شاكِر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، 1968.
- 2- الايضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
- 3- الحوادث الجامعة، لابن القوطي، تحقيق مصطفى جواد، المكتبة العربي، بغداد، 1351هـ.

- 4- دار الطراز ابن سناء الملك، دار الفكر العربي، دمشق، 1977.
- 5- ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبد العظيم، منشورات مؤسسة البابطين، الكويت، 2004.
- 6- ديوان أبي تمام، تقديم وشرح د. محيي الدين صبحي، دار صادر، بيروت، 1997.
- 7- ديوان شمس الدين الكوفي (ت675هـ)، تحقيق د. ناظم رشيد، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان- الاردن، 2006.
- 8- ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، 1960.
- 9- الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام، د. بشرى الخطيب، مطبعة جامعة بغداد، 1971.
- 10- فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي، تحقيق علي معوض، وعادل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
- 11- في أدب العصور المتأخرة، د. ناظم رشيد، جامعة الموصل، د.ت.
- 12- لسان العرب، حققه عامر أحمد حيدر وراجعه عبد المنعم خليل ابراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.
- 13- معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2007.
- 14- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب لأبي العباس المَعْرِي (ت1014هـ)، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
- 15- مفتاح العلوم للسكاكي (ت626هـ)، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1356هـ.